الدكتور عبد الصبور شاهين



إعداد
عبد الله المصري

الروافد الثقافية

الروافد الثقافية للطبع والنشر والتوزيع
القاهرة - مدينة نصر

المنطقة ٤٨ - عمارة (أ) - شقة ١١ - هاتف : ٣٥٥٢٠٠٩



الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وبعد ..

فقد كانت آية الكرسى من أوائل ما حفظنا من كتاب الله ، ونحن صغار ، ولانكاد نعى المقصود بالكرسى ، أو المقصود بالعرش ، أو غيره من أكوان الله التى تدل على عظمته ، ولا تدرك لها حقيقة ولا نهاية .

وكان المقصود بحفظ آية الكرسى أن يحفظنا الله بها من كل سوء ، وبخاصة ما يتوقع من تأثير الشياطين على حياتنا ، ولا تسل عن وجود العفاريت الذين كنا نستشعر تواثبهم من حولنا ، وكانت آية الكرسى بمثابة الحصن الذى نأوى إليه ، فيدافع عنا كيد الشيطان وذريته ، والعجيب أن العفريت الذى كان يحتل فى مخيلتنا كل مكان ـ كان لا يكاد يسمع آية الكرسى يتحرك بها لساننا الصغير ـ حتى يفر من المكان ، مخلفاً وراءه جواً من الأمان النفسى الذى كنا نطلبه بآية الكرسى .

لقد صنعت هذه الآية الأعاجيب فى حياتنا ونحن صغار ، ومازالت آثارها فى أنفسنا رائعة ، ونحن كبار ، وكل ما تغير خلال السنين المتطاولة هو معنى الشيطان والعفريت ، ومعنى الحفظ الذى حققته الآية ـ أو تحققه ـ لنا كلما قرأناها .

أصبحنا ندرك أن النفس الإنسانية مجال رحب يحاول الشيطان أن يقتحمه .. تارة بالخوف ، وأخرى بالتحايل ، وثالثة بالإغراء ، ورابعة بانتهاز

الغفلة ، أو بعبارة أدق .. بالتغفل ، وكل هذه مؤثرات فى السلوك الإنسانى تختلط فيها عوامل النفس بتأثيرات الشيطان ، بحيث لا يستطيع المرء أن يحكم لنفسه أو على نفسه ، أهو منقاد لهوى نفسه .. الهوى الخالص ؟ أم هو فى الحقيقة شيطانى يقود الإنسان نحو الشر ، ويدفعه إلى الغرور ؟

فإذا خضع الإنسان لدوافع الشر برز نشاط النفس الأمارة بالسوء ، وإذا وقف الإنسان ضد هواه ، وقاوم نوازع الشر برز وجود النفس اللوامة التى أقسم الله بها .

لم تعد التصورات الصغيرة للشيطان أو العفريت تحتل المكان الذى كان لها من قبل .. بل تغيرت الصورة ، وأصبح الإنسان يواجه مسئوليته عن أفعاله ، وصار عالم الشياطين ذا وظيفة واضحة فى باب الغواية والإغراء ، فالشياطين لا تخيف .. بل تحاول التقرب من عالم الإنس وحياتهم على هذه الأرض ، حتى ليتصور بعض الناس أن الشيطان صديقه الودود لأنه يقوده إلى اللذات والشهوات ، ويوصله إلى تذوق الحياة الدنيا تذوقاً عميقاً ، ولو كانت الحياة على هذه الأرض هى البداية والنهاية ـ لاعتبرنا دور الشيطان أساسياً فى التمتع بطيبات الحياة ، ولكان الشيطان أخلص الأصدقاء ، لأنه يدلنا على أجمل ما فى الحياة من متع ولذائذ ، لا ينالها إلا المحظوظون .

أمَّا والأمر ليس كذلك .. بل الحياة الدنيا لحظة خاطفة إذا ما قيست بالحياة الآخرة .. حيث تقدم قوائم الحساب ، وتدفع تكاليف الانغماس فى الملاهى الدنيوية، حين يقال لأصدقاء الشيطان : ﴿ **أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون** ﴾ [الأحقاف : ١٩] ـ أما وهذه هى الحقيقة فإن التعويل على صداقة الشيطان وذريته نوع من الخبال واضطراب العقل ، وضعف الإيمان ، ولا مفر من أن نراجع مواقفنا فى ضوء فهم جديد لآية الكرسى التى ترفعنا حين نفهمها إلى مستوى من العقيدة نحن بحاجة إليه فى مجتمعنا

المعاصر ، وهو ماعناه القرآن فى قوله تعالى : ﴿ **ونفس وما سوّاها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها** ﴾ [الشمس : ٧_١٠] .

ومع ذلك إن آية الكرسى تبقى تتردد على ألسنتنا لتحفظنا من كيد الشيطان وقبيله .. سواء على مستوى التصورات المادية التى تحتل عقول الصغار ، أو على مستوى التصورات النفسية التى تقودنا ونحن كبار ، فالله سبحانه هو ﴿ **خير حافظاً وهو أرحم الراحمين** ﴾ [يوسف : ٦٤] .. ﴿ **لا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم** ﴾ [البقرة : ٢٥٤] .

وحسبنا أن ننقل هنا جملة من الآثار التى تحدثت عن فضائل آية الكرسى .. من مثل قوله ﷺ : « **ما قرئت هذه الآية فى دار إلا اهتجرتها الشياطين ثلاثين يوما ، ولا يدخلها ساحر ولا ساحرة أربعين ليلة .. يا علىّ .. علمها ولدك وأهلك وجيرانك ، فما نزلت آية أعظم منها** » ، وقد روى عن على رضى الله عنه قوله : « سمعت رسول الله ﷺ على أعواد المنبر وهو يقول : **من قرأ آية الكرسى فى دبر كل صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنة إلا الموت ، ولا يواظب عليها إلا صديق أو عابد ، ومن قرأها إذا أخذ مضجعه أمّنه الله على نفسه ، وجاره ، وجار جاره ، والأبيات حوله** » .

وتذاكر الصحابة رضوان الله عليهم أفضل ما فى القرآن ، فقال لهم علىّ رضى الله عنه : أين أنتم من آية الكرسى ؟ ثم قال : قال لى رسول الله ﷺ : « **يا على سيد البشر آدم ، وسيد العرب محمد ولا فخر ، وسيد الفرس سلمان ، وسيد الروم صهيب ، وسيد الحبشة بلال ، وسيد الجبال الطور ، وسيد الأيام الجمعة ، وسيد الكلام القرآن ، وسيد القرآن البقرة ، وسيد البقرة آية الكرسى** » [تفسير الكشاف ٣٨٧/١] .

هذه النصوص وأمثالها تؤكد على خصوصية هذه الآية التى حملت من

أسرار الكون ، وصفات خالقه ما لم تحمل آية أخرى .

ولعل النظر إلى نسيج الآية يفصح عن شيء من هذه الخصوصية ، فقد نظمت جملها نظماً خاصاً ، كأن كل جملة منها عالم بذاته ، فلم يتوسط بينها حرف عطف ، ولا أداة ربط .. بل كل جملة هي ومضة باهرة من ومضات الوحي :

(١) الله لا إله إلا هو الحي القيوم

بيان لقيامه بتدبير الخلق ، وكونه مهيمناً عليه .

(٢) لا تأخذه سنة ولا نوم

فهو دائم العناية بأحوال العالم .

(٣) له ما في السماوات وما في الأرض

فهو مالك لما يدبره .

(٤) من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه

شأنه تعالى الكبرياء في السماوات والأرض .

(٥) يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء

فهو محيط بأحوال الخلق .. عليم بمن يستحق منهم الشفاعة ، ومن لا يستحق .

(٦) وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم

تعبير عن سعة العلم ، وعظمة الجلال ، وهيمنة القدرة .

والمتأمل لنظم الآية على النحو يجد أنها تعتبر تعبيراً واحداً لا ينفصل فيه جزء عن جزء .. بل تتمثل الأجزاء كلها فى بنية واحدة لتؤدى معنى واحداً متكاملاً هو أقصى ما وصف الله به نفسه ، وأثنى به على ذاته ، ولذلك كانت لآية الكرسى تلك المكانة الفريدة بين آيات القرآن .

دكتور عبد الصبور شاهين

تأملا ت فى آية الكرسى

الحمد لله .. حمداً كثيراً مباركاً فيه ، ملء السموات وملء الأرض ، وملء ما شاء من شيء بعد ، سبحانه سبحانه .. نحمده ونشكره .. ونتوب إليه ونستغفره .. ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ﴿ **من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً** ﴾ [الكهف : ١٧] .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له .. جعل الأيام دولاً ، وجعل من سنته أن يداولها بين الناس ، فكان ذلك آية قدرته ، ودليل حكمته .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وصفيه وخليله جاء على فترة من الرسل خاتماً لجماعة الأنبياء والمرسلين متمماً ومكملاً لشرائعهم وما جاءوا به .. صلى الله وسلم وبارك على ذلكم النبى الأمين .. وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته واستن سنته إلى يوم الدين .. أما بعد .

فيقول الله ـ تبارك وتعالى ـ فى كتابه الكريم من سورة البقرة : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم : ﴿ **الله لا إله إلا هو الحى القيوم * لا تأخذه سنة ولا نوم *له ما فى السموات وما فى الأرض * من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه * يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم * ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء * وسع كرسيه السموات والأرض * ولا يؤوده حفظهما * وهو العلى العظيم** ﴾ صدق الله العظيم . [البقرة : ٢٥٥] .

---

(١) هذه الخطبة ألقاها الدكتور عبد الصبور شاهين من فوق منبر جامع عمرو بن العاص يوم الجمعة الموافق ٢٧ شعبان ١٤١٣ هـ / ١٩ فبراير ١٩٩٣ م .

هذه هى آية الكرسى .. الآية التى تتحدث عن الله ـ تبارك وتعالى ـ ، من أولها إلى آخرها ، بما لم يرد فى آية أخرى من الآيات التى تتحدث عن قدرة اللع وعظمته ، أما هذ ه الآية فتصفه لنا كما وصف ذاته .. إن إرادة الله ـ تبارك وتعالى ـ شاءت أن ترِىَ الناس وتعلمهم حقيقة إيمانهم بالله .. وتحدد لهم هذا الإله .. ماهية إيمانهم به .. ؟ علاقته بمخلوقاته .. ؟ وهى تؤكد على الحد الفاصل بين الخالق والمخلوق ؟ وكيف ينبغى أن يكون اعتقاد الناس فى هذا الخالق العظيم الذى يؤمنون به .. ؟

هذه الآية هى التى تتولى الرد على هذه الأسئلة كلها .

كان الناس يعبدون آلهة كثيرة ، لكنك إذا سألت أحدهم : صف لى آلهك .. لم يستطع أن يقول شيئاً لأنه لا يعنى شيئاً أصلاً ، فهو حجر ، أو شجر ، أو كائن من الكوائن ورث عن آبائه عبادته ، ولأن الإله فى ظنه وهم من الأوهام ... فكرة غامضة غائمة ليس لها معالم ولا حدود ولا صفات ، وإلا فماذا يمكن أن يقول إنسان يعبد الشمس أو يعبد القمر .. ماذا يعرف من صفات الشمس أو صفات القمر ؟؟!! كانت الألوهية مجرد ميراث ، كما ذكر سبحانه عن أهل الجاهلية قولهم : ﴿ **إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مقتدون** ﴾ [الزخرف : ٢٢] . لقد كانوا يعبدون النار .. ويعبدون الحجر أو الوثن ، فما الذى يمكن أن يكون لهذه المعبودات من صفات من وعى عابديها ؟ اللهم لا شىء .. إنه لا يدرك من النار إلا أنها تلسع أو تحرق .. لكنه لا يستطيع أن يزيد على ذلك شيئاً ، وماذا فى هذا الأثر الذى تحدثه النار من اللسع أو الإحراق ؟!! إن هنالك كائنات تقتل كما تقتل النار بالإحراق .. فالسبع يقتل بالافتراس ، والثعبان يقتل بالسم ، ولم تجر العادة بتأليهها ، فعابد النار لا يختلف عن عابد السبع ، ولا عن عابد الثعبان !!

والذى يعبد حجراً ماذا يمكن أن يقول عن صفة هذا الحجر إلا أن يقول : إنه حجر ؟ فماذا يملك له من نفع أو ضر؟ إنه بكل بساطة واثق بأنه لا ينفع ولا يضر ، وهو يستطيع أن يحطمه دون أن يدفع عن نفسه أذى أو شراً يراد به .

عظمة القرآن والتوحيد

هكذا حال أولئك الذين يعبدون من دون الله شركاء ، ومن عظمة القرآن أنه وصف موقفهم وصفاً دقيقاً فقال : ﴿ **إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون** ﴾ [الأنعام : ١١٦] فعابد أى مخلوق يتبع وهماً من الأوهام ظناً ، من الظنون ... مجرد تخمين وكذب على النفس ، هو الذى خلقه فى نفسه ، وهو الذى يحمل وزره .

لقد جاء القرآن بالدعوة إلى توحيد الله ـ تبارك وتعالى ـ فهو فى هذه الآية يصف الله وصفاً محدداً لمعنى العقيدة فى الله .. لا نقول : إنه يحدد بهذه الصفات ذات الله .. فذات الله لا يحدها حد ، ولا يعدها عد ، وقديماً قال على كرم الله وجهه : « **من وصف الله تعالى فقد قرنه ومن قرنه فقد ثناه ، ومن ثناه فقد جزأ ، ومن جزأه فقد جهله ، ومن جهله فقد أشار إليه ومن أشار إليه فقد حده ، ومن حده فقد عده ، ومن قال : فيم ؟ فقد ضمنه ، ومن قال : علام ؟ فقد أخلى منه ، كائن لا عن حدث ، موجود لا عن عدم ، مع كل شىء لا بمقارنة ، وغير كل شىء لا بمزاولة ، فاعل لا بمعنى الحركات والآلة ، بصير إذ لا منظور إليه من خلقه ، متوحد إذ لا سكن يستأنس به ولا يستوحش لفقده** » .

هكذا تحدث على ـ كرم الله وجهه ـ عن جلال الله ـ تبارك وتعالى ـ فى أول خطبة من خطبه الواردة فى (نهج البلاغة) . وهو ـ ولا شك ـ أسلوب فريد قبسه عن حبيبه رسول الله ﷺ .

هذا هو التنزيه المطلق الذى جاءت به الآية الكريمة ﴿ **الله لا إله إلا هو الحى القيوم** ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، هكذا بكل قطع .. لا إله إلا هو .. فإن كان فى الكون إله آخر فليخاطبنا ، .. أو فليرنا أين هو ؟! وكيف هو .. ؟! وما علاقته بنا !! أمّا ولم يأتنا شىء من إله آخر ، فقد ثبتت الوحدانية لله ـ عز وجل ـ فى هذا الوجود كله ، وصدق الله : ﴿ **لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون** ﴾ ... ﴿ **ولو كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض** ﴾ .

صفة الحياة

ولذلك تأتى الآية قاطعة : ﴿ **الله لا إله إلا هو الحى** ﴾ .. الحى حياة أزلية أبدية ، قد يقول بعض الناس : إننا نتصف أيضاً بالحياة ، فأنا حى ، وأنتم أحياء .. نعم .. ولكنها حياة نسبية ، إلى مدى ، ثم يعتريها الفساد ، والفناء ، والموت ، والله ـ عز وجل ـ حى لا يموت ، هذا هو معنى الوصف بالحى ، أما سائر المخلوقات فيصدق عليها وصف القرآن حين خاطب النبى ﷺ : ﴿ **إنك ميت ، وإنهم ميتون** ﴾ .. أى : إن هذه الحياة ليست دائمة ، لأن من شأنك أن تموت ، وهو شأن الناس جميعاً . وقد استخدم القرآن هنا لفظة (ميِّت) بتشديد الياء ، لإفادة معنى توقع الموت لكل حى ، فأما حين أراد إفادة وقوع الموت فعلاً ، فقد استخدم لفظة (ميْت) بإسكان الياء ، وهو قوله تعالى : ﴿ **أوَ من كان ميْتاً فأحييناه** ﴾ .

قيومية الله

أما « القيوم » : فهو القائم على كل أمور خلقه ، والذى يتولى أمور هذا الخلق كله ، وهو يتولى أمور الخلق فى أدق الأشياء إلى أجلّها ، ومن أدق ذرة إلى أعظم مجرة كما يقول القرآن : ﴿ **وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات**

الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾ [الأنعام : ٥٩] ، وقولـه : **﴿ وما يغرب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ﴾** [يونس : ٦١] .

هكذا يستوفى القرآن ملامح الخلق كله ويضعها تحت قيومية هذا الإله الواحد ، الذى لا يشاركه إله غيره فى هذا الملك كله .

إن هنالك أناساً مازالوا يتوهمون أن بعض الخلق أو بعض الموجودات شركاء لله ، كأولئك الذين يعتقدون فى التثليث ، إنهم يتوهمون أن الله ـ عز وجل ـ محتاج إلى من يساعده ، فليكن له ابن يساعده فى إدارة هذا الملك ، ولتكن له صاحبة تؤنسه !! .. تعالى الله عما يشركون ، أو يصفون !!.

لقد نفى القرآن أن يكون لله صاحبة ، وأن يكون له ولد فى السورة التى نحفظها جميعاً : **﴿ قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد ﴾** [الإخلاص : ١ ـ ٣] ، إنه غير محتاج إلى من يساعده فى القوامة على الملك ، فهو سبحانه وتعالى ـ قادر بذاته على هذه القوامة ، لا يحتاج إلى من يساعده من الخلق ، لأن هذا الخلق عاجز عن أن يوجد ذبابة ، وهو خلق قابل للفناء ، فكيف يشارك الفناء البقاء المطلق فى ملكوته العظيم ؟ هذا شىء لا يمكن تصوره إلا فى العقول المريضة ، سألت مرة قساً من مالطة جمعتنى به مصادفة : كيف تتصورون ألوهية المسيح ، وأنتم تؤمنون بأنه قد مات على الصليب ؟ .. فرد علىّ بطريقة تدل على الاختلاط والعبث ، قال : مات المسيح الإنسان ، وبقى المسيح الإله !! . وقلت له : ولماذا لم يباشر المسيح الإله صلاحياته فى دفع الشر عن المسيح الإنسان ؟ .. ثم ما قيمة وجود هذا الشريك ؟ .. إن قلت ليساعد أباه ، فقد وصفتم الله بالعجز ، والله قادر لا شريك له ؟! ، فقال : أنتم تغلبوننا بالمنطق والعقل ، لكن عقيدتنا لا تستند إلى العقل ، فهكذا نحن ، ثم سكت القسّ ، فلم يحِرْ جواباً !! .

عناية دائمة

﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾

النوم هو قسيم اليقظة ، ومجموعهما هو الحياة البشرية ، وحين يعترينا النوم فإنه يأخذنا إلى عالم آخر لا نملك السيطرة عليه ، فنحن عاجزون عجزاً كلياً فى هذه الحالة .. واقعون تحت سلطانه ، ولا يليق بالخالق أن يوصف بالعجز ، وبالحاجة إلى النوم ، وبالخضوع لشىء هو من خلقه ، فهو سبحانه خالق الموت والحياة ، والنوم هو الموتة الصغرى .

وقد ورد فى قوله تعالى : **﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها ، والتى لم تمت فى منامها ، فيمسك التى قضى عليها الموت ، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى ﴾** [الزمر :] ، فالخلق محتاج إلى العناية الإلهية فى سعيه وصحوه ، وهو أشد حاجة إلى هذه العناية فى غفوته ونومه ، فإذا جاز على الخالق ـ سبحانه ـ أن تأخذه سنة أو نوم فإن معنى ذلك غيبة العناية عن هذا الخلق ، وما يجوز أن نتصور ذلك ولو للحظة خاطفة ، لأن حضور الله فى كل لحظة ، وعنايته بالكون شرط فى استمراره وديمومته .

ومعنى ذلك أن قوامته على الوجود قوامة دائمة لا تنقطع فى لحظة من لحظات الزمان الأزلى الأبدى .

ومن مقتضيات القوامة أن أعمال العباد تجرى تحت رقابة الله ، فهو القائم على كل نفس بما كسبت ، وهو المجازى لها بما عملت ، **﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾** [ق : ١٨] ، وتمثل هذه الرقابة صفة من صفات الخالق التى ينبغى أن يستحضرها كل مؤمن آناء الليل وأطراف النهار ، بحيث لا

يتصور إنسان أنه يمكن أن يفعل شيئاً فى لحظة معينة دون أن تراه عين الله ـ تبارك وتعالى .

ومما يذكر من حكايات الصالحين فى هذا المقام أن رجلاً صالحاً كانت له مجموعة من التلاميذ يجالسونه ويتعلمون منه ، ولاحظ التلاميذ أنه يفضل واحداً منهم عليهم جميعاً ، وأنه يؤثره برعايته وعنايته وتفضيله ، فقالوا له : إننا نلاحظ أنك تفضل فلاناً علينا وتؤثره بحبك ورعايتك ، ونحن جميعاً تلاميذك الأوفياء .. لانخالف لك إشارة ؟

فقال لهم : القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يصرفها كيف يشاء ، فلما وافوه بالغد كان قد أعد لهم اختباراً ، فأعطى كلاً منهم طيراً ، وطلب أن يذهب ليذبح هذا الطير فى مكان لا يراه فيه أحد ، فذهبوا جميعاً وعادوا بالطيور مذبوحة ، ووضعوها بين يدى شيخهم ، وجاء هذا الشاب ومعه الطير حياً لم يذبح ، فسأله : لِمَ لم تذبح طيرك ؟ فقال له : كلما ذهبت إلى مكان أتوهم أن أحداً لا يرانى فيه ذكرت أن الله يرانى ، فلم أستطع أن أذبح الطير ، ونظر الشيخ إلى تلاميذه فقال لهم : بهذا فضلته عليكم .. بحضور الله دائماً فى قلبه .

هكذا يستحضر المؤمن العارف بالله .. حضور الله فى كل أمر ، وفى كل حال .. إن وجود الله فى قلب المؤمن أعظم وأكبر من وجود المؤمن ذاته ، فإذا تأملت فى وجودك أنت ، وتمثلت لك حقيقة فنائك طبقاً لسنة الله الثابتة ﴿ **كل من عليها فان** ﴾ ، وأدركت أنك ظل إرادة الباقى : ﴿ **ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام** ﴾ [الرحمن : ٢٤ـ ٢٥] .

فاعلم أن الله تبارك وتعالى قال : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد** ﴾ [ق : ١٦] .. هكذا يكون الشعور بالحضور الإلهى ، والرقابة الإلهية ، وهكذا يكون الله فى قلب الإنسان المؤمن وحياته .

﴿ **لا تأخـذه سنة ولا نوم** ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، لأنه لو أخذته سـنة أو نـوم فقـد تخلت عنايته عن الخـلق وهو الذى يدير هذا الخـلق ، فإذا غـاب المدير ضـاعت الإدارة ، وضـاع الملك ، وهكذا تكون هذه الصفة تأكيداً لمعنى ﴿ **الحى القيوم** ﴾ [البقرة : ٢٥٥] لأنه لا يمكن أبداً أن تغيب عنايتـه وإدارته وتدبيره عن أى موجود فى هذا الخلق ، فإن الرعية مسئولة من راعيـها .. من يطعم الخلق ؟ من يكفل لهم استـمرار الحياة إذا غاب عنهم ؟ ومن هنا كان فهمنا لقوله تعالى : ﴿ **إنى جاعل فى الأرض خليفة** ﴾ [البقرة : ٣٠] .. يقول بعض المفسرين إن الإنسان خليفـة عن الله فى أرضـه و هذا معنى من القلق بحيث لا ينبغى أن نقول به تنزيهاً لله عن أن يغيب فيخلفه أحد من خلقه .

لقد خلق البشر فى هذه الأرض لا يدرون شيئاً عما أوجده الله فيها ، مما هو بحاجة إلى رعاية الخالق ، اللهم إلا قليلاً من العلم الذى أتاحه الله لهم ، ومن ثم فإنهم لا يمكن أن يكونوا أكفاء للاضطلاع بمهـمة رعاية هذا الخلق الذى يجهلونه ، ولا يحصون له عدداً .

إن الإنسان حين يغيب يتخذ لنفسه خليفة ، فيقول ـ مثلاً ـ لابنه الكبير : أنت خليفتى فى المال والأهل والولد ، أو يوصى أخاه بذلك ، وبهذا الاعتبار لا نستطيع أن نقول إن الإنسان صار خليفة عن الله فى الأرض فهذا تعبير متجاوز ، وإنما الخليفـة هو الوالى الحاكم الذى يحكم بين الناس ، ويتولى أمرهم نيـابة عنهـم ، فهو خليفة عنهم ، وهو مأمور أن يحكم بين الناس بما أنزل الله ، وبما أراه الله ، ولا يمكن أن يكون الإنسان بديلاً للعناية الإلهية ، التى تدبر شئون الخلق ، فى تفردها أو تعددها .

﴿ لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ .. أى : كل ما فى السموات وما فى الأرض ، ولابد أن نلاحظ أن القرآن فى أكثر الأحوال يقدم ما فى السموات على ما فى الأرض ، لأن الأرض لا تعدو أن تكون ذرة ، ولا تزيد عن أن تكون ذرة فى هذا الفضاء ، بل إن فى الفضاء من هذه الأرض ومن نوعها ملايين .. ومليارات .. إلى ما لا ينتهى إلا فى علم الله ـ تبارك وتعالى ـ فما بالنا بما فى السموات ؟؟شىء هائل جداً ، وطبيعى أن يشار إليه قبل أن يشار إلى ما فى الأرض من كون محدود لا يقاس إلى ما هو موجود خارجها ، ولذلك يبدو كل ما على الأرض ـ مهما عظم ـ صغير الهيئة .. صغير الحجم .. صغير الشأن . ومع ذلك فهو يعنينا ، لكى نتعلم أن كل ما نملك ليس ملكاً حقيقياً لنا ، وإنما نحن خلفاء أو ولاة حاكمون فيما نملك ، ثم يكون مَرَدُّ ذلك كله إلى الله ، ـ عز وجل ـ مالك الملك ، وملك الملوك .

والناس فى هذا الاعتبار سواء ، فالذى يملك المليار كالذى لا يجد لقمة يأكلها ، كلاهما داخل فى مفهوم تحديد الملكية ، أو فى مفهوم الصلاحية للتمليك ، فهذا إنسان استرعاه الله أمة .. وذاك استرعاه الله أسرة .. وذلك استرعاه الله نفسه ، كل من هؤلاء ملك فى ذاته ، لكنه مَلِكٌ زائل الملك ، لا يمكن أن يزعم أن يده على ما يملك دائمة ، ومستبدة ، بل الحق ما يقول القرآن : **﴿ آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾** [الحديد : ٧] فأنت مستخلف ، أى : إنك تتولى ما أنت فيه اليوم ، ثم ترحل عنه غداً ، كان أبوك خليفة عن أبيه ، وكنت خليفة عن أبيك ، وغداً يخلفك وريثك ، والوارث يأخذ دوره أيضاً ، ويأتى من يرثه ثم يزول هذا الوارث ، وتزول قبضته عن هذا الملك ، الذى آل إليه .

مداولة الأيام والشفاعة

وهكذا كما يقول القرآن: ﴿ **وتلك الأيام نداولها بين الناس** ﴾ [آل عمران : ١٤٠] .

لك يوم .. ولأولادك يوم .. ولأحفادك يوم ، ولا يمكن أن يزعم إنسان أنه مَلَكَ الأيام جميعاً .. كلا .. إنما يملك الأيام مداولها ، وخالقها العظيم ، الذى يملك الزمان ، كما وصف نفسه بأنه ﴿ مالك يوم الدين ﴾ وهكذا يكون يقيننا بالله رادعاً لنا عن أن نفترى أو نطغى ، أو نتصور أننا أحرار فيما نفعل ، نتصرف كيف نشاء . إن الله لو شاء أن يسلط عليك ـ أيها الملك ـ بعوضة أو جرثومة ، أو فيروساً ، لقضى عليك فى لحظة من ليل أو نهار ، فهو سبحانه ﴿ **القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير** ﴾ [الأنعام : ١٨] .

أجل .. أيها الإخوة المؤمنون .. لابد أن يتذكر كل إنسان .. وكل ملك .. وكل والٍ .. كل حاكم : أن فوق أنفاسه إرادة الله ـ تبارك وتعالى ـ لا يظننَّ أحد أنه يتصرف فى أرواح العباد كيف يشاء ، فلقد قالها من قبل النمروذ وقال : أنا أحيى وأميت .. فقد أميت النمروذ .. ثم أميت بعده ملايين النماريذ ، وكل ذلك تدبير للخالق الذى يدير ملكه . دون شريك .

﴿ **لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات والأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه** ﴾ يتصور بعض الناس أن لهم أن يعيشوا كما يشاؤن بين آكام الفوضى والآثام ، ثم إنهم بعد ذلك يلوذون بجوار واحد من الخلق يشفع لهم بين يدى الله فيدخلون الجنة ، وهكذا مجاناً بلا عمل ، إلا أن ينالوا بركة الولىّ أو بركة الرجل الصالح ، لقد قطع الله ـ تبارك وتعالى ـ السبيل على هذه التصورات المريضة التى لا يمكن أن تتفق مع حقيقة الإيمان ، وحقيقة العدل .. العدل أن ينال كل إنسان بحسب عمله ﴿ **ولكل درجات مما عملوا وما ربك**

بغافل عما يعملون ﴾ [الأنعام : ١٣٢] ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم فلا تظلم نفس شيئاً** ﴾ [الأنبياء : ٤٧] .

فالله عز وجل ـ قادر ، ومن شأنه القدرة على أن يدخل الناس النار أو الجنة بحسب إرادته وأمره ، ولكنه يعلمهم أن الميزان وهو قاضٍ فى مصائرهم الأخروية ، ينبغى أيضاً أن يكون قاضياً فى شئونهم الحياتية وألا يتجاوزوا الميزان ﴿ **وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان** ﴾ [الرحمن : ٩] هكذا هو الحساب .. وهكذا هو الشأن فى الآخرة ، وهو أيضاً ما ينبغى أن يكون شأن الحساب فى الدنيا ، ﴿ **وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان** ﴾ ولا معنى للشفاعة مع الظلم ، وإذا كانت الشفاعة عطاء إلهياً للنبى ﷺ تشريفاً وتكريماً ، فلن يكون ذلك إلا بإذن الله : ﴿ **من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه** ﴾ إن الله العظيم لم يجعل لمخلوق من مخلوقاته أن يمضى فيما يريد إلى غير ما حد ، بل إن لكل مخلوق حده الذى يقف عنده ، وقدره الذى لا يتجاوزه بين يديه ، سواء فى ذلك الأنبياء ، والصالحون والعامة من الناس ، وتلك حقيقة يلتزم بها كل مؤمن ، ويجعلها من ثوابت إيمانه ، بحيث لا يطغى الغلو على ميزان الشخصية فيطمس بذلك جوهر العقيدة .

إن بعض الناس يعتقدون أن بعض الخلق أوتى بعض صفات الألوهية ، وعلى قدر ولاية الولى ، أو بالأحرى : اعتقاد الناس فى ولايته يكون سلطاناً على الأنفس والآفاق .

بعض الناس يتصورون أن فى الأرض من يديرها من الأقطاب أو من الأوتاد ، وكل هذه تخيلات عجيبة تتنافى مع روح العقيدة ، ولا تتفق وشأن العقيدة فى الله .. إن الله لا يحتاج إلى هؤلاء المساعدين فى إدارته للكون ، بل للأكوان ، فهو سبحانه ﴿ **خالق العالمين وربهم** ﴾ ، وليس فى وسع الإنسان أن يدرك مدى خلق الله ، فالمحدود لا يدرك غير ما يناسبه من علم محدود ، وإذا اعتقد إنسان غير ذلك ، فقد أشرك : ﴿ **إن الذين تدعون من دون الله عباد**

أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين ﴾ [الأعراف : ١٩٤] .

شفاعة الرسول

هكذا شأن العقيدة فى الله ، أمر حاسم واضح لا يمكن أن يلابسه شك أو ريب ، وكل مخلوق يقف بين يدى الله يجب أن يدرك أنه أمام المهابة والجلال ، شاعراً بأنه عبد ذليل خاضع ، يسأل الله ـ عز وجل ـ أن يرحمه ، كما يقول رسول لله ﷺ : « **لن يدخل أحداً الجنة عمله ، قالوا : حتى ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : حتى ولا أنا إلا أن يتداركنى الله برحمة منه وفضل** » .

نعم .. هكذا شأن العقيدة قاطع واضح ، فلا ينبغى أن يلتبس تصورنا لوجود الله بالشكوك والأوهام ، وبالخزعبلات ، وبالشرك الخفى والشرك الظاهر ، لأن ذلك يضيع أجر أعمالنا ، ولرسول الله ﷺ فضل يوم القيامة أن يشفع فى بعض أمته ، وبعض أمته لن يشفع له ..

يقول رسول الله ﷺ : « **يعرض علىّ يوم القيامة أناس من أمتى ، وهم يساقون إلى النار ، فأقول يارب أمتى أمتى ، فيقول : إنهم ليسوا أمتك .. إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك** » .

فهل يرى الذين يعطلون شرع الله ، والذين يحاربون منهج الله .. هل يرون هذه الحقيقة ؟ ماذا أحدثوا بعد رسول الله ﷺ ؟ وهل من حقهم أن يطمعوا فى أن يشفع لهم رسول الله ﷺ بعد أن وقفوا هذه المواقف ضد الشريعة ، ورفضوا تطبيق أحكامها ؟

إن تطبيق شريعة الله هى العدل المطلق ، ولا يمكن بالمفهوم القرآنى تعطيل عدل الله بتدخل الشفاعة ، وإلا وقع التناقض بين مراد الله ومراد الرسول ، ومن ثمّ ارتبطت الشفاعة بالإذن الإلهى الذى يحقق عدل الله .

﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ ما أرهبها عبارة .. تُصوّر هيمنة الله وسلطانه على الأبدان والأنفس بالعلم الشامل لكل ما كان وما يكون ، وما هو كائن ، والإنسان عار تمام العرى أمام علم الله وقدرته .. إن الله محيط بكل شئونك . عالم بكل حاضر بين يديك من الزمان والمكان ، وبكل ما مضى خلفك زماناً ومكاناً . ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ فماذا بقى من سر الإنسان ، مما يحاول أن يخفيه عن علم الله تبارك وتعالى ؟ لا شيء !!

إن الذاكرين لهذه الحقيقة هم الأصفياء الذين يستشعرون رقابة الله عليهم فى كل لحظة من ليل أو نهار ، وهم الذاكرون حقاً ، فهم واثقون بأنهم بين يدى القدرة لا يستطيعون شيئاً من أمرهم إلا برحمة الله ومعونته .

الإحاطة بعلم الله

﴿ يعلم ما بين أيديهم ومام خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء ﴾

نعم لقد بلغ الإنسان فى هذه الحياة مبلغاً كبيراً من العلم ، وذلك كله بفضل الله ومشيئته .. كان الإنسان يعيش عصوراً متطاولة ، قد تبلغ ملايين السنين ، وهو لا يدرى شيئاً ، ثم آتاه الله العقل .. **﴿ وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ﴾** [النحل : ٧٨] ، على طريق تسوية كيانه ، وتحسين صورته ، وحين اكتملت ملكاته ، وتألق ضميره ، وتكونت شخصيته الإنسانية .. آتاه الله الدين ، وفتح عليه بالرسالات ، ثم زاده فأطلعه على شىء من سنن الكون كما يقول القرآن : **﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾** [فصلت : ٥١] ، وبهذا تمكن من بناء الحضارة .

فى القرن التاسع عشر كان الإنسان قد بلغ من الإلحاد درجة الجنون ، حين توهم بعض الناس أنهم بلغوا ذروة العلم ، وكشفوا عن قوانين المادة ، فأنكروا وجود الله ، وجاء القرن العشرون ، فشهد عودةً إلى الدين ، ورجوعاً إلى

أنواره ، فإذا بكثير من العلماء يعودون إلى الإيمان ، ويعترفون بأن لهذا الكون خالقاً عظيماً ، وبأنهم يقفون أمام ظاهراته الحافلة بالأسرار الكثيفة ، فإذا هم لا يستطيعون أن يخترقوا حجبها إلا حروفاً قليلة هي ما تأذن به القدرة الإلهية فى حدود قوله تعالى : ﴿ **وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً** ﴾ [الإسراء : ٨٥] ، ومهما تزايد هذا القليل فسيظل قليلاً فى جنب علم الله الشامل الأزلى الأبدى .

أضرب لكم مثلاً بسيطاً : فالإنسان استكشف وجود البترول فى الأرض ، ووصل إلس ذلك ببعض الأجهزة التى توصل إليها فاستخرج بها البترول من باطن الأرض .. كان ذلك منذ سنين ، وفى كل عام يطوّر الإنسان أجهزة استنباط البترول ، فيستكشف طبقات جديدة لم تكن أجهزته قبل ذلك توصله إليها ، فلما منّ الله عليه بمزيد من العلم والتطوير والتقنية استطاع أن يصل إلى ما هو أبعد ، وهنالك ما هو سر أيضاً حتى الآن سيفتح الله به على الأجيال القادمة ، فلكل جيل نصيبه من المقومات ، وإلا فإن الحياة لا تستمر .

إن الله قدّر فى الأرض أقواتها إلى يوم القيامة ، لكنه لم يكشف .. ولم يمكن الإنسان من كل الأقوات مرة واحدة .. مكّنه من الثمرة ، ثم علّمه الزراعة والصناعة ، ثم فتح عليه آفاق العلم بمكونات المادة ، وأسرار الخلايا ، حتى توصل الآن إلى كيفية استنباط أنواع جديدة من الزراعة من خلال التلاقح والتلقيح والتطعيم ..

إن الإنسان الآن يزرع الشجرة فتثمر فى زرعها ثمراً مزدوجاً ، وهو إنجاز يعتبر ثورة علمية فى مجال الزراعة يضاعف من حصيلتها ، فالأوراق تعطى ثمرة كالخيار مثلاً ، وفى الجذور ثمرة كالبطاطس .. الجذور تعطى ، والفروع تعطى ، وبذلك يطوّر الإنسان أدواته ، ليكفى حاجة الأفواه التى تتكاثر .

إن كل مايفعله الإنسان هو أنه يستخرج من الأرض ما استكن فيها بتقدير الله وعلمه ، وبقدر ما أتاح لخلقه من العلم فى كل جيل حتى يتعرف على الإمكانات الخفية التى تعتبر رصيد الحياة ، وكنوزها الدفينة ، وكل ذلك بإذن

الله ، لأن الخلق جميعاً ﴿ **لا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء** ﴾ .

سبحانه ذو الجلال والإكرام!!

﴿ **وسع كرسيه السماوات والأرض** ﴾ ، والكرسى هنا طبعاً ليس كرسياً مما نعرف أو نألف ، ولكنه كون من فلك الله ـ تبارك وتعالى ـ وسع السماوات والأرض ، وهو كون مغيب عنا لا ندرى من أمره شيئاً ، إنما هى تعبيرات قرآنية تزيد تصورنا لجلال القدرة الإلهية ، وعظمة وجود ذات الخالق سبحانه .

فما يرد فى القرآن من ذكر العرش والكرسى والقلم واللوح .. إنما هو أسماء تشير إلى مسميات كونية تقرّب إلينا ما غاب عنا .. ﴿ **ولا يؤوده حفظهما** ﴾ أى لا يشق عليه حفظ السماوات والأرض ، كما لا يعجزه حفظ ما بث فيهما من دابة .. دقّت أو جلّت .. عظمت أو صغرت ، فقد بنى الكون كله على هذا التوازن الحافظ ﴿ **وهو العلى العظيم** ﴾ .

أيها الإخوة المؤمنون ..

هذه هى آية الكرسى ، حاولنا أن نبين بعض معانيها ، ولسنا ندعى استقصاء ، ولا إحاطة ، فقد قرر الله سبحانه أننا لا نحيط بشىء من علمه إلا بما شاء ، وهذا هو مدى ما شاء لنا من الفهم فى هذه الآية الكونية ، التى لا يحيط بمعناها سوى منزلها سبحانه ، وهى آية يتجلى فيها التوحيد الخالص ، والتنزيه ، وتصور العظمة والجلال ، كما أثنى الله بها على نفسه ، فهى صيغة ربانية للذكر ، تتضمن من الأسرار ما يضع الذاكرين على باب الرحمة ، ويقربهم من حظيرة القدس ، ويرفعهم إلى أعلى عليين ، وحسبنا أن نرددها لنعيش فى حماها ، ونسير على هداها ...

﴿ **وتبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام** ﴾ [الرحمن : ٧٨] .

أقول قولى هذا وأستغفر الله العظيم لى ولكم .

فهرس الكتاب